الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات في مقياس "أدب الاستشراق" موجهة لطلبة السنة الثالثة ليسانس تخصص "الأدب العربي"

الأستاذ: علي بن تيشة

الموسم الجامعي: 2022/2021

محاضرات في مقياس أدب الاستشراق

المحاضرة الأولى:

الاستشراق: المفهوم- النشأة والتطور.

يحتل مصطلح الاستشراق حيزا كبيرا وهاما في حقل الدراسات الإنسانية والاجتماعية، حيث اهتم به الكثير من النقاد والباحثين والمفكرين وحتى الأكاديميين أيّما اهتمام، وقبل الخوض في المعنى الاصطلاحي للاستشراق من تتبع جذور الكلمة وتطوره عبر الزمن.

أولا- مفهوم الاستشراق:

1-التعريف اللّغوي: جاءت في القرآن الكريم كلمة "الشرق" بعدة ألفاظ وتصاريف مختلفة منها لعل أبرزها: مشرق والمشرق ومشرقين والمشرقين... حيث وردت في سبعة عشرة (17) موضعاً والتي دائما تدل على الجهة المعاكسة للغرب، وهو موضع شروق الشمس، قال الله تعالى في كتابه العزيز: "وأشرقت الأرض بنور ربها". (الزمر الآية 68)، وأيضا في قوله تعالى: "ربُّ المشرقين وربُّ المغربين" (الرحمن الآية 17) وفي آية أخرى قال عزّ وجلّ: " فلا أقسم برب المشارق والمغارب" (المعارج الآية 40).

جاء في **لسان العرب لابن منظور** أن كلمة **شرق** تحمل عدة معاني: شرقت الشمس شرقا وشروقا، شرقا: طلعت، واسم الموضع المشرق، وكان القياس المشرق، ولكنه أحد ما ندر من هذا القبيل، وفي حديث ابن عباس: نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت، والشرق: المشرق، والجمع أشراق؛ قال كّثير عزّة:

إذا ضربوا يوما بها الآل زينوا   مساند إشراق بها ومغاربا

والتشريق: الأخذ في ناحية الشرق، يقال: شتان بين مشرق ومغرب، وشرقوا ذهبوا إلى الشرق، أو أتوا الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق، ويستعمل في الشمس والقمر والنجوم.

ورد في **القاموس المحيط للفيروز آبادي** أن كلمة **"الشرق":** الشمس، ويحرك، وأسفارها وحيث تشرق الشمس والشق والمشرق، والضوء يدخل من شق الباب ويكسر، وطائر بين الحدأة والصقر، وإقليم بإشبيلية، أو إقليم بباجة. وشرقت الشمس شرقا وشروقا: طلعت، كأشرقت: والشاة شرقا: شُقّ أذنها. والنخل: أزهى كأشرق والثمرة: قطفها. والمشرق: جبل بالمغرب، ومخلاف المشرق: باليمن. والضحاك المشرقي: تابعي، أو صوابه: كسر الميم وفتح الراء، نسبة إلى مشرق: بطن من همدان. و(لا شرقية ولا غربية) النور الآية 35. أي لا تطلع عليها الشمس عند شروقها فقط، لكنها

شرقية غربية، تصيبها الشمس بالغداة والعشي، فهو أنضر لها وأجود لزيتونها. والشَرقة بالفتح، والمشرقة، مثلثة الراء، وكمحراب ومنديل: موضع القعود في الشمس بالشتاء. وتشرق: قعد فيه. وكمنديل من الباب: الذي يقع فيها ضحى الشمس عند شروقها، وباب للتوبة في السماء وشارقة حصن بالأندلس، وشرقت الشاة، وأشرق: دخل في شروق الشمس، والتشريق: الجمال، وإشراق الوجه، والأخذ في ناحية الشرق، وتقديد اللحم، ومنه: أيام التشريق، أو لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس.

2-التعريف الاصطلاحي: إن الباحث عن تعريف محدد للاستشراق سيجد نفسه أمام سيل من التعريفات التي لا تنتهي، ومن أجل هذا فإن إعطاء تعريف الاستشراق هو ضرب من المحال، وكل تعريف نجهد أنفسنا لإعطائه لا يكون شاملا جامعا مانعا. ورغم اقتناعنا بهذه الفكرة، إلا أن هذا لا يمنعنا من سَوقُ بعض التعريفات لعلماء وباحثين عرب التي قد توضح لنا أكثر ماهية الموضوع.

اختلفت معاني الاستشراق تبعا للهدف الذي وجهه أصحابه، نجد تعريف المفكر **إدوارد سعيد** الذي يرى بأن الاستشراق هو "أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق (وفي معظم الأحيان) الغرب".

ويوضح الباحث **محمد عبد المنعم خفاجي** هذا المفهوم قائلا: "الاستشراق هو التفرغ من بعض العلماء في أوروبا وأمريكا، لدراسة الشرق في تراثه وثقافته وتاريخ شعوبه وأديانه وأممه ولغاته، وما لهذه الأمم من علوم وآداب وفنون وعادات وتقاليد في ماضيها وحاضرها، وخصائص حضارات هذه الأمم".

ويتطرّق **محمد عبد الغني حسن** لعلم الاستشراق بقوله: "الاستشراق هو اشتغال غير الشرقيين بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وأديانه وروحانياته وأثر ذلك في تطور البناء الحضاري للعالم كله".

أمّا عن **أحمد حسن الزيات** فيرى أن الاستشراق اليوم هو" دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممنه ولعاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره؛ ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم...".

ومن خلال إيرادنا لكل هذه التعريفات، نجد أنّها تصب في فلك واحد وهو الاستشراق الذي هو دراسة الغرب لعلوم وحضارات وتاريخ الأمم الشرقية، لكن لكل مفكر نظرته الخاصة به في تناوله لهذا المفهوم ودرجة الدفاع عن وجهة نظره.

ثانيا- نشأة الاستشراق وتطوره:

لقد تفرّعت الآراء واختلفت حول تحديد تأريخ بعينه لظهور الاستشراق تبعا لتفرّعها واختلافها عندما يتعلق الأمر بضبط تعريفه ودوافعه وحتى مراحله منذ ظهوره إلى أيامنا هذه، لأن رسم الحدود بين الحقب الزمنية المتتالية أمر بالغ التعقيد، خاصة أنه ارتبط بتفاعلات عكسية تطورت في ظل الجغرافيا الحضارية القديمة حيث بدأ الوعي بـــــــ "الأنا" و "الآخر"، "الأوروبي" و "غير الأوروبي" وفي مرحلة لاحقة "المسيحي" و "غير المسيحي" وبصورة أخصّ "المسلم". هذا التمايز الذي يجعل من البحث عن هذا "الآخر" ضروري، وتقصّي عاداته وتقاليده وأنماط عيشه وحتى طرائق تفكيره وكل ما يحيط به من أمر في غاية الأهمية. وإذا ما أخذنا بهذا المعنى الواسع في تحديد نقطة البدء للدراسات الاستشراقية، لأمكننا اعتبار **"هيرودوتس"** المؤرخ اليوناني الشهير، أول من اهتم بذلك النوع من الدراسة ميدانيا في سفره الخالد إلى أرض الوافدين ومصر وبلاد الشام والجزيرة العربية مسجلا ما استقاه عن رحلته من معلومات حول سكان الشرق وعاداتهم وتقاليدهم وتجارتهم وحتى تراثهم الأسطوري، وقد دشن بذلك رحلة البحث عن هذا الشرقي وعالمه الذي لم تدّخر البحوث التالية جهدا في الكشف عن خباياه وسبر أغواره.

ويرجع كل من "**أحمد الإسكندراني**" و "**أحمد الشرباصي**" و "**جورجي زيدان**" و "**أسعد داغر**" الاستشراق إلى القرن العاشر الميلادي، عندما كانت العلوم العربية في الأندلس في لحظة الذروة، ولذلك نفترض من البداية أن الإسبان وضعهم خاص في هذه الفترة، لسبب بسيط يتمثل في "الرسالة الحضارية التي أدتها إسبانيا المسيحية كوسيط بين الشرق وأوروبا" فقد كانت بالإضافة إلى البرتغال وجنوب إيطاليا جسرا لنقل المعارف والعلوم والآداب والفنون إلى أوروبا، وكان المستعربون في القرون الأولى للاحتكاك الحضاري مع المسلمين.

ومن طلائع المستشرقين الاسبان يذكر **بدوي والعقيقي**: **يوحنّا بن داود الاسباني ويوحنّا الإشبيلي وروبرت أوف تشستر وهرمان الدلماطي وأفلاطون التيفولي ودومنجو جونثالث**. أما في ألمانيا فإن أول من اشتغل بالعربية وتثقف بثقافتها هم **ألبرت الكبير** (1193-1280) الذي اطلع على كنوز الثقافة الوثنية واليهودية والمسيحية والعربية، وقد أخذ عن **الفارابي وابن سينا وابن رشد**. من آثاره مصنف ضخم في حيوان ألمانيا وسبعة كتب في الخضر والنبات وله أيضا "تفاصيل في الفلسفة وقضايا فلسفية ولاهوتية" اعتلى منصب الأستاذية في زمانه لسعة علمه بالفلسفة واللاّهوت والتاريخ الطبيعي حتى لقب دكتورا عاما، فذاع صيته وأصبح له تلامذة حملوا فكره وتأثروا به،

وعلى رأسهم **توما الأكويني** (1225- 1274)، أستاذ اللاهوت الشهير، الذي أمضى الكثير من أوقاته متأملا في الفلسفة العربية، مقارنا إياها باليونانية فاستفاد من درسه لهما وأفاد، وظل يناضل من أجل الحدّ من سلطة الفلسفة الرشدية وانتصر أخيرا لأرسطو، حينما قضى مرسوم عن أسقف باريس وتحريمها، ولم ترق دراساته اللاهوتية هو الآخر للكنيسة فعدت الكثير منها خروجا عن الدين، لكنها تراجعت بعد وفاته وأعلنت قداسته "فأضحى أكبر فلاسفتها، ومازالت فلسفته أساس الدراسات اللاهوتية الكاثوليكية حتى اليوم".

ويعتبر "**نجيب العقيقي**" في مؤلفه القيم "المستشرقون" أن أول مستشرق هو "**جربر دي أورلياك**" (938-1003)، فقد ذهب إلى الأندلس ودرس بمعاهد قرطبة سنة 967م، وانتخب بابا لكنيسة روما عام 999م باسم **سلفستر الثاني**. ومع ذلك يورد "**العقيقي**" تفصيلا هاما في موضع آخر مفاده أن القديس التشيكي "**كيرلس**" نزل بالمشرق العربي حوالي 851م وسجل مجادلات للمسلمين وأثنى عليهم وترجم بعض آيات القرآن لعلها من أولى ترجماته إلى اللاتينية.

وتعزو طائفة كبيرة من الباحثين بداية الاستشراق إلى الحروب الصليبية التي دامت قرابة القرنين (1097-1295)، وأصبحت المواجهة فيها على الأراضي الشرقية بعد أن طال الفتح الإسلامي صقلية والأندلس بدخول الفاتح العربي عام 711م. وقد جاءت تلك الحملات العسكرية نتيجة لتراكمات تاريخية بوصفها التجلي الواضح والصريح للعداء بين الغرب المسيحي والشرق المسلم في ظل مصالح كيانات معينة. فقد كانت للكنيسة أطماع حقيقية حرّكتها أحقاد دفينة ضد الإسلام والحضارة العربية، ولعل أبلغ تعبير عن تلك الأحقاد والمطامع ما جاء على لسان البابا أربان الثاني في خطبته بمدينة كليرمونت الفرنسية محرّضا النصارى على الالتحاق بتلك المواجهة القادمة بقوله: "لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أحلامكم أو من شؤون أسركم ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنوها والتي تحيط بكم من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال، ضيّقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز أن تجود بما يكفيكم من الطعام، وتتحاربون ويهلك الكثير منكم في الحروب الداخلية". فقد فعل التعصّب الديني فعله في البحث عن أسباب قوة المسلمين وتمسكهم بالإسلام الذي استطاع في ظرف وجيز أن يثبت أنه الأقوى، وبلغت الفتوحات الإسلامية أصقاع كثيرة، فامتدت من آسيا الصغرى شرقا إلى المغرب الأقصى غربا، ووصلت

إلى مشارف بلاد الغال وتخوم الصين، وهددت بذلك الوجود المسيحي في معاقله الحصينة، بعد سقوط مدن وجاليات كثيرة إلى الحضيض في حواضر كانت تدين بالمسيحية.

لكن **العقيقي** يعيد بناء العلاقة بين الاستشراق والحروب الصليبية بشكل مختلف امتدادا لرأيه الذي ذكرناه، فيقرر خطأ أولئك الذين يعتقدون أن أوروبا لم تشهد الاستشراق الحقيقي إلا بعد الحروب الصليبية التي هي في نظره نتيجة واحدة لمقدمة واحدة هي الاستشراق.

ويبدو أن سقوط طليطلة عام 1085م وما تلاه من الجهود التي نسقها ورعاها بطرس المحترم بدء بترجمة القرآن ترجمة مشوهة إلى اللاتينية عام 1143م وإخراج مايكل سكوت لترجمته الإسبانية في 1142م ضمن مجموعة من الكتب الإسلامية بهدف عرض الإسلام من وجهة نظر مسيحية، وقائع تمثل البداية الحقيقية لإنتاج المعرفة الاستشراقية المتخصصة، وبحجم لم تشهده القرون الماضية.

ثالثا: أطوار الاستشراق:

يرى **أحمد سمايلوفتش** أن الاستشراق مرّ بثلاثة أطوار هي التكوين والتقدّم والانطلاق، أمّا **ساسي سالم الحاج** فقسّم مراحل تطوره إلى أربعة هي على التوالي: الدينية، العسكرية، السياسية، العلمية. وبعد تفحّص نشأة الاستشراق وتمحيص دوافعه، على ضوء الأسس التاريخية والمنطلقات الفكرية من بداياته الأولى إلى أيامنا هذه استقر رأيي عند التقسيم الثلاثي الذي سأعرض له فيما يلي، على أن أبدأ بالتصور الكرونولوجي أولاً:

المرحلة الأولى: من بداية الاهتمام الأوروبي ما بين القرنين **9 و10** وتمتد لتشمل العصر الوسيط.

المرحلة الثانية: تبدأ مع نقطة التأريخ للعصر الحديث، وتستمر إلى نهاية القرن الخامس عشر (يشكّل سقوط القسطنطينية مرحلة فاصلة في تحديد نقطة البدء للنهضة العلمية الأوروبية).

المرحلة الثالثة: ترجع إلى القرن السادس عشر، فقد بدأت الدراسات الاستشراقية بالتبلور في صورتها المعروفة في هاته الفترة.

الطور الأول/ طور التكوين والتبلور: من الشواهد التي لا تغيب عن المتأمل في نشأة الاستشراق وتطوره ما للتبشير من أثر في ولادته على نحو لافت، وقد كان أهم الأهداف البحثية المعلنة لترجمة القرآن إلى اللاتينية ودراسته، هو التعرف على الإسلام ومبادئه وتعاليمه من طرف رجال الدّين المسيحيين ولإظهار أنه هرطقة مسيحية، كما أن "الغرض الأساسي هو محاولة تنصير المسلمين وردّهم عن دينهم، باعتبارهم من المضللين الذين تركوا الديانة المسيحية الصحيحة واعتنقوا هذا الدّين" ولتحقيق ذلك الغرض كان لزاما على الكنيسة أن تستعين بجهود أبنائها المخلصين، بما تملك عليهم من سلطة مرجعية، وهو ما تمّ فعلا على يد الكثير من المبشرين على اختلاف مشاربهم، ولثقل المهمة الملقاة على عاتقه، فقد أريد للمبشّر أن يكون عارفا بلغة الأرض التي سيرتحل إليها.

الطور الثاني/ طور الانطلاق والتقدم: خلفت الحروب الصليبية تراكمات كثيرة غيّرت ملامح العلاقة بين العالم المسيحي والإسلامي وشكّلت إرهاصات لمرحلة جديدة في فصول التعامل مع الشرق بكل أبعاده. لقد أدركت أوروبا أخيرا أن أمر المواجهة العسكرية محسوم لصالح المسلمين لأسباب كثيرة لا يسعنا المجال للوقوف عليها، وأدركت أيضا أن المسلمين أهل حضارة وعلوم، فتعززت الرغبة لدى الأوروبيين في استكشاف ذخائر العالم العربي، وإذا كانت الحروب الصليبية الحدث العسكري الهام في توجيه مسار الاستشراق في هده المرحلة فإن حدثا علميا لا يقل أهمية، وقع في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، هو إنشاء كراسي اللغات الشرقية في عدد من الجامعات الأوروبية، وتعود إلى هذا الحدث مزية إطلاق النواة الأولى للاستشراق كدراسة منتظمة للشرق، لها أدبياتها ومرتكزاتها.

الطور الثالث/ طور التخصص والاحتراف: يمكن التأريخ لبداية هذه المرحلة في أواسط القرن السادس عشر ذلك أن المعرفة الاستشراقية التي تبلورت بدايتها الأولى في القرن العاشر الميلادي وانطلقت بفعل الحروب الصليبية وإنشاء كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الأوروبية، وكذا تعاظم الدور الذي لعبته الترجمة لعلوم العرب وثقافتهم في بناء صرح علمي، كان يومئذ في طور التأسيس، انطلقت كمعرفة تتجه نحو التخصص والاحتراف، بالتوازي مع النهضة العلمية الفتية التي تدين بالكثير لحركة الترجمة وتوظيف معارف الحضارة العربية الإسلامية، وتميزت هذه المرحلة بزيادة الاهتمام باللغة العربية، واستحداث كراسي اللغات الشرقية في الكوليج دو فرانس وأكسفورد وكمبردج وغيرها.

المحاضرة الثانية:

مدارس الاستشراق

اختلف الباحثون في تصنيف مدارس الاستشراق، فمنهم من راعى التصنيف الموضوعي وذكر المستشرقين بحسب تخصصاتهم العلمية، ومنهم من اختص بالدراسات القرآنية، ومنهم من اختص بدراسات السنة والسيرة المتعلقة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم من اختص بتاريخ العرب والإسلام، ولا يخفى أن هذا التقسيم لا يخلو من صعوبة، إذ من الصّعب أن يكون هذا التصنيف دقيقًا لاعتبارين:

الأول: أن معظم المستشرقين قد كتبوا في موضوعات متداخلة، وليس من اليسير على الباحث أن يكون دقيقا في تصنيفه، لصعوبة تحديد اتجاهات المستشرقين بسبب تداخل العلوم الإسلامية وتقاربها.

الثاني: من الصعب – وفقا لهذا التصنيف الموضوعي – وضع خصائص لكل مدرسة من المدارس الاستشراقية، لأن كل مدرسة تشتمل على عدد كبير من المستشرقين يختلفون اختلافاً بيّناً في مناهجهم واتجاهاتهم وميولهم، لاختلاف طبائع الشعوب وما تتركه في شعوبها من طبائع وملامح.

ولهذا اتجه بعض الباحثين إلى تصنيف المدارس الاستشراقية بحسب انتماءات أفرادها، فهناك المدرسة الفرنسية والمدرسة الإنجليزية، والمدرسة الألمانية، والمدرسة الإيطالية، والمدرسة الاسبانية، والمدرسة الأمريكية، والمدرسة الروسية. وما يهمنا محاضراتنا المدرسة الفرنسية والانجليزية والألمانية والإيطالية.

1-المدرسة الفرنسية:

تُعَدُّ المدرسة الاستشراقية في فرنسا من أبرز المدارس الاستشراقية، وأغناها فكراً وأخصبها إنتاجاً وأكثرها وضوحاً، ويعود سبب ذلك للعلاقات الوثيقة التي تربط فرنسا بالعالم العربي والإسلامي، قديما وحديثا، وكانت فرنسا موجودة في معظم علاقات العرب بأوروبا، في حالات السلم والحرب، فالعرب وصلوا إلى حدود فرنسا، وأخافوها، وكانت فرنسا على علاقة وثيقة بدولة الخلافة العباسية في أيام شرلمان والرشيد، وشاركت في الحروب الصليبية، وتطلّعت إلى احتلال أجزاء من الوطن العربي، وغزى

نابليون مصر، وأقام علاقات سياسية واقتصادية معها، واحتلت فرنسا المغرب العربي وسوريا ولبنان.

وهذا التاريخ السياسي المتواصل، جعل فرنسا من أوائل الدول الأوروبية التي عُنيت بالدراسات العربية والإسلامية، للاستفادة منها وترجمة آثارها وإنشاء كراس علمية لتدريسها منذ القرن الماضي، وأوفدت طلابها لمدارس الأندلس لدراسة الفلسفة والحكمة والطب فيها.

ومنذ وقت طويل أنشئت كراس في المعاهد والجامعات الفرنسية لدراسات اللغات الشرقية، ومنها اللغة العربية والدراسات الإسلامية، ويوجد في مكتبة باريس الوطنية أكثر من سبعة آلاف (7000) مخطوط عربي، ونوادر من الآثار الإسلامية من نقود وأختام وخراط، وأسهم المسيحيون اللبنانيون في نقل بعض المخطوطات العربية إلى فرنسا.

وصدرت في فرنسا مجلات اهتمت بالتراث العربي والإسلامي والتعريف به، واستطاع الأدب العربي أن يؤثر في الأدب الفرنسي، وانتشرت بعض الكتب الأدبية العربية في فرنسا، كما تأثر بعض المفكرين الفرنسيين بما اطلعوا عليه من تراث العرب وفلسفتهم من أمثال ابن رشد وابن خلدون والنزعات الصوفية، واستعملوا كثيرا من المصطلحات الدينية التي كانت سائدة في التراث العربي الإسلامي.

ومن المستشرقين الفرنسيين الذين اهتموا بالحضارة العربية الإسلامية نجد:

- **بوستل (1505-1581م)**، الذي تعلم اللغات الشرقية، وقام بتكوين الطلائع الأولى لجيل المستشرقين، ودرّس اللغة العربية في فيينا، وكتب عن قواعدها، وعن التوافق بين القرآن والانجيل، وعن عادات وشريعة المسلمين.
- **البارون دي ساسي (1758-1838م)**، وكان مكلفاً بالمخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية وكتب عن قدماء العرب وعن اليمن، واهتم بكتب القزويني، ولخّص بعض الكتب العربية، وكتب عن تاريخ مصر وعرب الحجاز، وكان من مؤسسي الجمعية الأسيوية ورئيسا لها، وقضى حياته في خدمة الاستشراق بالتأليف والترجمة والتحقيق والنشر، وكان من أبرز المستشرقين في عصره.

2-المدرسة الإنجليزية:

تتميز المدرسة الاستشراقية الإنجليزية بالعمق والدقة، وهي أكثر المدارس صلة بالشرق وبخاصة الشرقين الأوسط والأقصى، وكانت صلات بريطانيا بالشرق قوية، عن طريق الاتصالات الثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، وكانت المدرسة الإنجليزية وثيقة الصلة بمنطقة الخليج والعراق وفلسطين ومصر، بالإضافة إلى صلاتها الوثيقة بالهند، والإسلام في المنطقة الهندية له تراث عريق، ولا يمكن إغفال أهمية تلك البلاد الهندية في إغناء الفكر الإسلامي.

ومن الطبيعي أن تتأثر المدرسة الإنجليزية باهتمامات المناطق الجغرافية التي تسيطر عليها، وأن توجه اهتمامها لفهم إسلام كل منطقة ومكوناته وفكره وتراثه وقضاياه.

والاستشراق اهتمام بدراسة الشرق وفكره وثقافته، والشرق ممتد على رقعة فسيحة الأرجاء، تسكنه شعوب مختلفة التكوين متباينة الخصائص، متصارعة متنافسة، وبالرغم من أن الإسلام وَحَّدَ الكثير من ثقافة هذه الشعوب وقَرَّبَ ما تباعد من فكرها وعقائدها وقيمها وتقاليدها، بفضل وحدة التوجيه المستمد من القرآن ووحدة المعايير التي تحكم السلوك الإنساني، بسبب الثقافة الواحدة الموجهة ذات المصدرية الإلهية، فإن بعض الخصائص تظل ثابتة، لأنها ترتبط بالجغرافيا أولاً لتأثيرها على السلوك، وترتبط ثانياً بالقابليات المكتسبة المتوارثة التي تحكم قبضتها على مسار تلك الشعوب، من حيث الطباع والعادات وقيم السلوك.

وإذا كانت المدرسة الفرنسية تجد في إفريقيا الشمالية ساحة رحبة لاهتمامها، وتدرس الحضارة الإسلامية من خلال تاريخ هذه المنطقة، فإن المدرسة الإنجليزية تبحث عن الحضارة الإسلامية في المنطقة الإسلامية من آسيا، في الهند والصين والعراق وفلسطين.

وكما تتأثر المدارس الاستشراقية بساحة نفوذها وامتدادها وحضورها، فإنها تتأثر أيضا بطبائع الشعوب التي تنتمي إليها المدرسة، فالشعوب ليست متماثلة في تكوينها، وينعكس ذلك على خصائص المدرسة فالفرنسيون ليسوا كالإنجليز في تكوينهم النفسي، فالفرنسي واضح شديد الاعتزاز بنفسه، ويعتبر ذلك من خصائص الشعب الفرنسي، وهو يميل إلى المبالغة والنزوع إلى الميثالية ويفتخر بذلك، ولا يخفي انفعاله في المواقف وعناده في الدفاع عما يعتقده صحيحا، وهو بسبب ذلك أكثر عنصرية في تعامله مع الشعوب التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي، والفرنسي شديد الطموح فيما يتعلق بمستقبله، ويغرق في كثير من الأحيان في الأحلام، ولا يفيق إلا عندما يكتشف الحقيقة كما هي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للطبيعة الإنجليزية الهادئة التي تغلب عليها العزلة

والنزوع إلى الواقع، وإخفاء مطامحها تحت ستار العقلانية والقبول بالأمر الواقع وتستطيع الطبيعة الإنجليزية أن تحقق أهدافها بذكاء ودهاء بسبب غموضها وعدم انفعالها، وهذه الطبائع يمكننا إدراكها في خصائص كل مدرسة من المدارس الاستشراقية، ولا يمكننا فهم فلسفة كل مدرسة وتفسير مواقفها إلا بعد معرفة خصائص كل مدرسة من حيث الدوافع والاستعدادات والطبائع.

والمدارس الاستشراقية الأوروبية انطلقت في البداية كحركة استشراقية غربية أوروبية واحدة، ولم تكن لها عاصمة خاصة، انطلقت من رغبة الغرب في اكتشاف علوم الشرق بشكل عام والشرق الإسلامي بشكل خاص، ومعرفة هذا العالم الغامض الذي انطلقت منه الحضارات الإنسانية ذات الاشعاع الروحي والبعد الإنساني.

وفي عام **1633م**، استحدث **السير توماس آدامز** أول كرسي للدراسات العربية في جامعة كمبريدج، وأنشأت جامعة لندن كرسيّا للغة العربية، ثم أنشأت كرسيا للدراسات الإسلامية أشرف عليه **بكنجهام**.

ثم أخذت الجامعات الإنجليزية الأخرى تنشئ أقساما للدراسات الشرقية، ومعظم الجامعات الإنجليزية اليوم تدرس اللغات والدراسات الشرقية، ثم أخذت هذه الجامعات تنشئ مدارس وكليات تابعة لها، في إفريقيا والبلاد العربية والإسلامية وفي الهند والباكستان.

واهتمت مكتبة المتحف البريطاني في لندن بالتراث الشرقي، وضمت إليها مكتبات بعض القناصل الذين عملوا في القاهرة وبغداد ومسقط ودمشق، وجمعوا كثيرا من المقتنيات الشرقية من مخطوطات ووثائق ومصاحف ومعاجم وأوراق وسجلات رسمية، وهناك فهارس للمخطوطات العربية وفهارس للكتب العربية في المتحف البريطاني وضعها بعض الباحثين.

ومن أبرز المستشرقين الانجليز نجد:

- **هاملتون جيب (1971-1895م):** ولد بالإسكندرية، واتجه إلى الدراسات الأدبية، واهتم بتاريخ الثقافة العربية، وأشرف على الدراسات العربية في جامعتي لندن وأكسفورد، وكتب عن الاتجاهات الحديثة في الإسلام، والديانة المحمدية والحضارة

الإسلامية، وعن فتوحات العرب في آسيا الوسطى والحملات الصليبية، وكذا النظرية الإسلامية عند **ابن خلدون**، وعن نظرية **الماوردي** في الخلافة.

- **رينولد نيكلسون (1868-1945م):** يُعدُّ نيكلسون من أبرز المستشرقين الإنجليز الذين اهتموا بالتصوف الإسلامي، وكان أستاذا بجامعة كمبريدج، وانصرف إلى دراسة التصوف، وكتب مقالات عديدة عن الصوفية في الإسلام، وأهداف التصوف الإسلامي، وسيرتَي **ابن الفارض وابن عربي،** ونشر ديوان المثنوي **لجلال الدين الرُّومي،** وديوان ترجمان الأشواق **لابن عربي.**

وهناك مستشرقون آخرون من أبرزهم: **السير توماس أرنولد** المتوفى سنة **1930م،** وكان أستاذا بمدرسة اللغات الشرقية بلندن، ومن المعجبين بالإسلام، و**مرجليوث** المتوفى سنة **1940م،** وكان أستاذا بجامعة أكسفورد ورئيساً لتحرير مجلة الجمعية الملكية الأسيوية، وكان عضوا في المجمّع اللغوي بدمشق، واهتم بالمخطوطات العربية في المتحف البريطاني، وله آثار علمية واسعة وترجمات وتحقيقات علمية منشورة في المجلات العلمية عن الإسلام والتصوف والخلافة الإسلامية والشعر الجاهلي، و**فيلبي** المتوفى سنة **1960م** وكان مهتما بالجزيرة العربية ودراسة مناطقها وفكرها والحركة الوهابية.

المحاضرة الثالثة:

المدرسة الألمانية والمدرسة الايطالية

1-المدرسة الألمانية:

كانت الحروب الصليبية هي المحرّك الأهم في علاقات الغرب المسيحي بالعالم العربي والإسلامي، ومن الطبيعي أن ينصرف اهتمام الألمان إلى دراسة اللغات الشرقية

بعد أن بدأت هذه الدراسات تحظى باهتمام العلماء في فرنسا وإنجلترا، وكانت علاقات ألمانيا مع الدولة العثمانية قوية بسبب الروابط والمصالح السياسية والاقتصادية، وكان المستشرقون الأوائل في المدرسة الفرنسية هم رواد المدارس الاستشراقية في أوروبا كلّها، ولما شعرت ألمانيا بأهمية الدراسات الشرقية، أنشأت في جامعاتها معاهد اللغات الشرقية، وفي بداية هذا القرن ازداد اهتمام الجامعات الألمانية بالدراسات العربية والإسلامية، ويوجد في برلين متحف للفن الإسلامي، وأنشأ **فلايشر** الجمعية الشرقية الألمانية التي تبنت نشر التراث العربي والإسلامي ونشر ذخائره وتوثيق صلة ألمانيا بالعالم العربي والإسلامي، ونشرت هذه الجمعية عدداً من أمهات الكتب العربية، وأسس **"هارتمان"** الجمعية الشرقية الألمانية للدراسات الإسلامية، التي أصدرت مجلة **"عالم الإسلام"** كما أصدر المستشرقون عدداً من المجلات عن الشرق وتراثه، ومن أبرزها **"مجلة الإسلام"** التي صدرت عن معهد اللغات الشرقية بجامعة هامبورج، وتهتم هذه المجلة التي أنشأها المستشرق **"كارل بيكر"** التعريف بالتراث العربي والإسلامي والعناية به.

وتتميز المدرسة الألمانية بالجدية والعمق والدقة، ومن الصّعب تجاهل دورها في مجال البحث والدراسة، وبالرغم من أنها بدأت في وقت متأخر، فإن المستشرقين الألمان أكدوا أصالة هذه المدرسة وقوتها وقدرتها على التصدي لقضايا فكرية هامة. ومن أبرز علماء هذه المدرسة:

- **كارل بروكلمان (1956-1868م):** يُعَدُّ بروكلمان من أشهر المستشرقين الألمان بسبب كتابه الشهير **"تاريخ الأدب العربي"**، وتتلمذ على يد المستشرق **"نودلكه"**، وأخذ عنه اهتمامه بالدراسات العربية، وبدأ عمله العلمي بدراسة عن العلاقة بين كتاب **الكامل** لابن الأثير وكتاب **أخبار الرُّسل** للطبري، وعُيّن أستاذا في عدد من الجامعات الألمانية، وعضوا في عدد من المجامع العلمية، ومنها مُجمَّع دمشق، واشتهر بروكلمان بنشاطه العلمي وعمقه وصبره ودقته، وله آثار علمية كثيرة، في التاريخ والسيرة والتراجم واللغات الشرقية القديمة.
- **جوزيف شاخت (1969-1902م):** تخرّج شاخت من الجامعات الألمانية، وعُيّنَ أستاذا للدراسات الشرقية فيها، وانتُدب لتدريس فقه اللغة في الجامعة المصرية، ثم انتقل إلى إنجلترا، وعمل في الإذاعة البريطانية ضد بلاده، وحصل على الدكتوراه مرّة ثانية من أكسفورد، وحاضر فيها، ثم عُيّنَ أستاذا في جامعة ليدن في هولندا، وانتخب عضوا في عدد من المجامع العلمية ومنها المجمّع اللغوي بدمشق، واهتم

بدراسة الفقه الإسلامي ونشر عدة كتب فقهية، منها كتاب **الحيل والمخارج** للخصاف، وكتاب **الحيل في الفقه** للقزويني.

2- المدرسة الإيطالية:

عندما نتكلم عن المنطق والتاريخ فإننا نعني بذلك المدرسة الإيطالية، فإيطاليا كانت من أعرق أمم الغرب التي اتصلت بالشرق الأدنى اتصالا وثيقا منوعا، ونالت الثقافة العربية واللغات الشرقية من الترجمة والحفظ والتعليم والنشر بفضل الفاتيكان حظا موفورا، كذلك لهذه المدرسة طريقتها الخاصة بها ومذهبها الخاص يهمها قبل كل شيء الوضوح والجلاء، ونشاطها الإستشراقي الذي تمركز في الفاتيكان انصرف إلى الدروس الكتابية وما يمت إلى هذه الدروس من بلدان الهلال الخصيب ولاسيما في فلسطين ومصر والعراق، واهتمت هذه المدرسة اهتماما بالغا بدراسة آثار العرب في صقلية وإفريقيا الشمالية والبلدان العربية الأخرى.

وبالتالي فليس من المبالغة القول، إن إيطاليا مهد الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا ومن المعروف جدا دور الفاتيكان والباباوات المسيحيين في التأسيس للدراسات الاستشراقية.

وفيما يأتي بعض أهم أعلام الاستشراق الإيطالي:

- **إغناطيوس جويدي (1844-1935م):** ولد في روما وتعلّم العربية فيها ثم صار أستاذا في جامعتها منذ سنة **1885م**، انتدبته الجامعة المصرية أستاذا للأدب العربي تاريخيا وجغرافيا سنة **1908م**، يُعَدُّ بحق شيخ المستشرقين في اللغات السامية، خاصة السريانية والحبشية. آثاره كثيرة تنوعت بين كتب ومحاضرات ومقالات نقدية، من أهمها نجد: نماذج من الكتابة الكوفية **(1888م)**، كتاب الأفعال وتصريفها لابن القوطية **(1894م)** ودراسة نص كليلة ودمنة **(1873م)**.
- **الأمير ليوني كايتاني (ت1926م):** ولد في روما وتخرّج من جامعتها، تعلّم وأتقن سبع لغات كبرى منها العربية والفارسية، كان ثريّاً وقد سمح له ثراؤه بإشباع رغباته المعرفية حيث كان عاشقاً للثقافة الشرقية عامة وللعربية على وجه الخصوص، تنقل بين عدّة عواصم عربية منها بيروت ودمشق والقاهرة وحتى الهند، وجمع مكتبة

زاخرة بالمخطوطات النفيسة، من أهم مؤلفاته: حوليات الإسلام، انتشار الإسلام وتطور الحضارة.

- **كارلو نالينو (1872-1938م):** من مواليد مدينة تورينو، درس وتعلّم اللغة العربية في جامعتها صار أستاذا للعربية في المعهد العلمي الشرقي في نابولي **(1894-1902م)** ثم أستاذا في جامعة بالرمو وروما بعد ذلك حيث أنشئ له خصيصا كرسي للتاريخ والدراسات الإسلامية **(1915م)** منذ سنة **1909م** وهو يحاضر باستمرار في مصر.

من أهم آثاره: تكوين القبائل العربية في الإسلام **(1893م)**، فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية لمجمع العلوم في تورينو **(1901م)** شعر ابن الفارض والتصوف الإسلامي وغيرها الكثير.

المحاضرة الرابعة:

الاستشراق وتاريخ الأدب العربي

يدخل اهتمام الاستشراق بالأدب العربي، عبر عصوره المختلفة في إطار اهتمامه بالثقافات الشرقية على كثرتها واختلافها، وهي عناية أقل ما يقال عنها إنها وبغض النظر عن الخلفيات الإيديولوجية والعقدية خدمت فعلا الأدب العربي، وحفظت الكثير من النماذج والنصوص الأدبية من الزوال والضياع وذلك بتطبيق مناهج وأساليب علمية مكنت من الإحاطة بطبيعة الحياة الأدبية والفنية عموما التي سادت العالم العربي في القرون الماضية.

لقد مهّد المستشرقون بأبحاثهم ودراساتهم عن الأدب العربي، الطريق أمام ميلاد دراسات وأبحاث أخرى في الشرق الإسلامي عموما والعالم العربي على وجه الخصوص، وآثارهم في هذا المجال لا زالت ممتدة إلى يومنا هذا، واتخذها الجيل الجديد منطلقا له في إرساء دعائم جديدة للبحث العلمي. وإن اعترت أعمالهم بعض النقائص أو

لقيت انتقادات فذلك لا يحوم دون الاعتراف بصنيعهم واجتهادهم الأكيد في التنقيب والبحث، وإصدار الأحكام. وهذه الرؤى الاستشراقية التي وإن خلت أحيانا من الموضوعية وانساقت وراء أهواء وأغراض ذاتية، كانت هي الأخرى منطلقا لإعادة النظر في تراثنا القديم، والكشف عن مواطن الزيف التي حاول بعض المستشرقين إرساءها، وذلك بتقديم الحجة والبرهان لبيان عكس ما ذهبوا إليه (أي المستشرقون) " إن الدراسات الأدبية، وتاريخ الأدب التي نعرفها اليوم هي أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم".

وللمستشرقين أيضا فضل كبير في تحقيق النصوص، والمقارنة بينها والتمييز بين صحيحها وزائفها في حضور معطيات وقرائن شكّلت عندهم أدوات للبحث، ووسيلة للوصول إلى الحقيقة العلمية، وهي خطوات لابد منها سواء أكان البحث متعلق بأدبهم المحلي أو أدب غيرهم من الشعوب، وقد اهتم بعض منهم بإحياء التراث الأدبي واللغوي والتاريخي، وحققوا كتبا ضخمة تشبه المجامع العلمية تهتم بالبحث والدرس والتحقيق والتعليق.

أولاً-أسباب اهتمام الاستشراق بالأدب العربي:

إذا تساءلنا عن الأسباب والدوافع الكامنة وراء اهتمام المستشرقين المبالغ فيه بالأدب العربي وإفراد الجهد والوقت والمادة في سبيل دراسته وتحقيقه والحكم عليه، نجد أن هذا التساؤل كثيرا ما راود المفكرين في الشرق والغرب على حد سواء.

ويمكن أن نطرح السؤال على النحو الذي وجدناه عند عائشة عبد الرحمن حين قالت " ما الذي أغرى الغرب الحديث بمتابعة البحث في تراثنا بعد أن أدى غرضه في خدمة عصر الإحياء، وصار للغرب الدور القيادي للحضارة المادية والعلمية، هل يفتش فيه عن شيء يحتمل أن يكون (...)؟ أو هل يرى فيه ميراثا إنسانيا من حقه أن يصان وينشر ما دام أهله قد نبذوه وأضاعوه".

يمكننا تبين أسباب هذه العناية انطلاقا من طبيعة الأدب نفسه، والظروف العامة التي ولد فيها وتطور إلى أن أصبح على النحو الذي نراه اليوم. كما يمكننا طرح مجموعة من التساؤلات قد تقودنا إلى الفصل في هذا الموضوع من ذلك مثلا: ماذا يكشف لنا الأدب؟ ومن وجهة نظر مقارنية يمكننا أن نتساءل: هل من أثر خلّفه الأدب العربي في الآداب الأخرى دفعت بأصحابها إلى تبين مواطن هذا التأثير؟ وهل يمكن على وجه التقريب أن نحدد مكانة الأدب العربي ومنزلته عند الشعوب الأخرى؟ وماهو الظرف الحضاري

الجديد الذي عرفه الغرب مواكبا لحركة الاستشراق العلمية ومؤثرا في الأدب؟ وانطلاقا من هذه التساؤلات جميعها يمكننا تحديد أسباب هذا الاهتمام في النقاط الآتية:

1-استجلاء صورة الشرق من خلال الأدب:

إذا كان الأدب يعبّر عن شخصية مبدعه التي تتصارع فيها الأحاسيس، وتتداخل فيها المفاهيم، فهو لابدّ أن يرجع ليُعبّر عن المجتمع الذي يعيش فيه. إن الأديب نموذج أو عيّنة بسيطة يتكرر وجودها في المجتمع زمانيا ومكانيا، ومن خلال قراءة هذه الآثار الأدبية يمكننا أن نتبين صورة المجتمع، وطبع أفراده وأساليب تفكيرهم، وطرق معيشتهم... نظرا لما فيها من عناصر ومكونات استقاها الأديب من البيئة الاجتماعية ووقف منها موقف المصور والناقد في آن واحد، إنه فعل فردي، ولكنه أيضا فعل اجتماعي للفرد، فالطابع الجوهري والأساسي للمصنف الأدبي أن يكون ذلك التواصل بين الفرد والجمهور.

لا يعبّر الأديب عن تجربة خاصة أو فردية، بقدر ما يحاول أن يعبّر في مصنفاته عن واقع اجتماعي في مختلف أبعاده، والذي تختلف مسائله من حقبة إلى أخرى.

2-دعوة المذهب الرومانتيكي إلى الاهتمام بآداب الأمم الأخرى:

إنّ ميلاد الاستشراق سواء أكان فكرة أو علماً كان أسبق في الظهور زمانياً مقارنة بالمذهب الرومانتيكي الذي ظهر حوالي نهاية القرن الثامن عشر. وانطلاقاً من هذا المنظور لا يجوز لنا الحديث عن تأثير حركة متأخرة زمانيا (الرومانتيكية) في أخرى متقدمة (الاستشراق). ولكن يمكننا القول عن الرومانتيكية، وإن لم تكن من الدوافع الأساسية والجوهرية في ميلاد الاستشراق كما هو الحال بالنسبة إلى الدافع العلمي والدافع الديني، إلا أنها كانت من العناصر التي دفعت المستعربين إلى الالتفاف حول آداب الأمم الأخرى، والشعوب الشرقية على وجه التحديد. لقد أثّرت الرومانتيكية في تحديد سير الاستشراق الأدبي مجالا معرفيا يهتم بآداب الأمم الشرقية، ويسعى إلى البحث في طبيعتها وكذا في الروابط التي تربطها بغيرها من الآداب.

3- تأثير الأدب العربي في آداب الأمم الأخرى:

تعدّ ظاهرة التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة من العوامل الأساسية التي وجهت أنظار المستشرقين إلى الاهتمام بالأدب العربي نظرا لما وجدوا من ملامح عربية كثيرة في الآداب الغربية يظهر من خلاله مدى تأثر الأدب الغربي بالثقافة الشرقية والإسلامية عموما التي أصبحت تشكّل بالنسبة إلى الأديب الغربي مورده الخصب الذي يستقي منه صورا ومضامين تخرج أدبه على نحو لم يعهد في البيئة الأدبية الغربية. وهذا يدلنا على

مدى إيمان الغرب واقتناعه بأن أساس تطوره الفكري والأدبي لابد وأن تكون ظاهرة التأثير والتأثر إحدى دعائمه الأساسية.

المحاضرة الخامسة:

الاستشراق والشعر الجاهلي

1-مكانة الشعر الجاهلي عند بعض المستشرقين:

إذا كان الاستشراق بالنسبة لنا هو دراسة كافة البنى الثقافية والحضارية التي تميزنا عن باقي الأمم الشرقية الأخرى، فإنه يأتي على رأس هذه البنى الثقافية والجمالية الأدب العربي القديم الذي استأثر بنصيب وافر من هذه الدراسة. منه بالخصوص الشعر الجاهلي الذي تشكّل قراءته ومقاربته استلهاما لروح العقل الجمعي التاريخي العربي قبل الإسلام.

لقد رأى الاستشراق في الشعر الجاهلي المدخل الأنسب لفهم جوهر الحياة الروحية والاجتماعية والسياسية والحضارية للعرب، والمترجم الصادق لهويتهم الحضارية؛ فالشعر على حدّ عبارة **ابن قتيبة (ت276ه): "**معدن علم العرب، ومقر حكمتها وديوان أخبارها ومستودع أيامها والسور المضروب على مآثرها والخندق المحجوز على مفاخرها والشاهد العدل والحجة القاطعة عند الخصام...".

ولمّا كان الشعر بهذه المنزلة الرفيعة اتجهت أنظار بعض المستشرقين إلى دراسته وتحقيقه وفهرسته وترجمته ولا يستطيع أحد أن يُنكر إسهامهم في دراسة الأدب العربي القديم عموما والشعر الجاهلي خصوصا وبمنهجيات لم يألفهما أصحاب الشأن فيه، وبغض النظر عن مدى صحة هذه الأنظار النقدية في نصوص الشعر الجاهلي وموضوعية ومقارباتهم أو ابتعادها عن روح هذا الفن ووقوعهم في أخطاء علمية ومنهجية وتاريخية، إلا أن أثر تلك الدراسات والقراءات كان جليًّا في إثراء الكتابات النقدية العربية في العصر الحديث إما متابعة وتثمينا أو ردًّا وتفنيدًا.

2-توثيق الشعر الجاهلي:

تناول كثير من المستشرقين الشعر الجاهلي بالنقد والفحص والتمحيص والشك والتوثيق، سواء أكان ذلك من خلال دراسات خصصوها، أو من خلال مقدمات الدواوين والكتب التي حققوها ونشروها أم من خلال دراستهم لتاريخ الأدب العربي وأعلامه، أم من خلال الردود التي كتبوها على بعض الدراسات الاستشراقية، وبعض هذه الدراسات سريعة أو جانبية، أو وضعت لأغراض تعليمية، التي كان لها أثر وخطر في الدراسات الجاهلية. وسألمُّ بهذه الدراسات عارضاً وملخصاً ومعلقاً، ومؤكدا الجانب الذي يخص الانتحال، وسأقف على أهم الأفكار وبخاصة الدراسات التي لم تسلط عليها الأضواء.

3-دراسات المستشرقين:

إنّ دراسة أفكار المستشرقين حسب التسلسل التاريخي يتيح لنا معرفة تطور الفكر الاستشراقي ونظرته للشعر الجاهلي، وإن كان المستشرقون يتأثر بعضهم ببعض ويتداولون أفكارهم فيما بينهم، ولذلك تتكرر لديهم الأفكار والأحكام. وأهم هذه الدراسات حسب صدورها هي دراسة **نولدكه**.

- **نولدكه:** لعل أول الدراسات التي ظهرت وأثارت الانتحال والشك في الشعر الجاهلي بحث نولدكه بعنوان "في سبيل فهم الشعر الجاهلي"، حيث وقف نولدكه في بحثه هذا عند موضوعات كثيرة، تتناول تَكَوُّنَ الشعر الجاهلي، وطبيعته، وبدايته، ووصوله إلى العصر العباسي وحفظه، وقد لاحظ أن الشعر الجاهلي ظهر فيه التكرار في المعاني وفي صياغة بعض أبيات من الشعر وتشابهها واعتبر ذلك أمرا طبيعيا لتشابه البيئات، وقد اعترف المؤلف بأن ما يبدو غريبا من الشعر بالنسبة للمستشرق الأجنبي، هو شيء طبيعي مألوف بالنسبة لأصل ذلك الشعر.

ومما يزيد صعوبة الفهم بالنسبة للمستشرق وصول القصائد مضطربة الترتيب ومنتزعة من سياقها، ولو وصلت مرتبة وكاملة كما أنشدها الشاعر، لكان فهمنا أيسر وأوضح ، ولابدّ للشعر عند كل الشعوب أن يضطرب ترتيبه وينتزع من سياقه في مسيرته الطويلة، منذ العصور القديمة حتى وصوله مدوناً في عصور الكتابة والتدوين، وأنّ الرواية الشفوية يضيع فيها شعر كثير ويضطرب ترتيبه، ومما أقررنا وشهدنا بقوة الذاكرة عند العرب، كما هو الأمر عند الشعوب الموهوبة التي تندر أو تنعدم فيها الكتابة، فإنّ أقوى الذاكرات لا تستطيع أن تحول دون حدوث تغييرات تدريجية قوية فيما تحفظ.

وقد لاحظ **نولدكه** أن بعض الرواة في العصر الأموي، قد سلكوا مسلكاً يتّسم بالاستهتار وعدم المسؤولية، ومن المغالاة أن نطالب رجلاً مثل **حماد الرّاوية** (المتوفى بعد منتصف القرن الثاني) أن يدقق في آلاف القصائد، التي كان يحفظها تدقيقاً علمياً وأن يرويها للخلف كما هي في نصّها الأصلي دون أدنى تغيير، وطالما بقيت القصائد حيّةً في أفواه الشعب، فإنها كانت معرضة لكل مصائر الأدب الشعبي.

ويتناول **نولدكه** صور هذا التغيير الذي يحدث أثناء النقل الشفوي على مرّ العصور، بأن تستبدل كلمة أو عبارة أخرى، إما عن قصد ابتغاء تيسير الفهم، وإما عن غير قصد، ويعزو سبب هذا إلى الثروة الهائلة التي تملكها اللغة العربية في المفردات والتعبيرات.

ويفسّر **نولدكه** كثرة وجود المقاطع أو الأبيات المفردة في الشعر، أن الرواة كانوا يختارون من القصائد وينتقون زبدتها، ويهملون قسماً منها، ولذلك كثيراً ما يحصل أن تضم بعض هذه القطع والأبيات إلى بعضها، إذا تشابهت في الوزن والقافية وكان المضمون مناسبا، وقد حدث ذلك عن طريق السهو والغفلة، كما حدث في شعر **إمرئ القيس،** الذي أدخلت فيه أبيات من **تأبط شرا**.

وكثيرا ما يحدث أن بيتاً ما في الشعر يتكرر مع تغيير ضئيل في قصيدتين لشاعر واحد، أو شاعرين مختلفين، وعلينا أن نفترض بأن البيت في غير محلّه من القصيدة، أو أنّ الراوي خلط بين الموضعين.

للمحاضرات مصادر ومراجع